وقفات رمضانية

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»

قال الله تعالى [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] البقرة: 216

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد ، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه ، لم يأمن أن توافيه المضره من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد أوجب له ذلك أموراً :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الإبتداء ، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع . وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه ، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل .

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعقل الكيّس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سمٌ قاتل ، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم ، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعهُ بالتناول .

ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها ، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية ، فإذا فقد اليقين والصبر تعذّر عليه ذلك ، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كلّ مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة .

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور ، والرضا بما يختاره له ويقضيه له ، لما يرجو فيه من حسن العاقبه .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم ، فلعل مضرّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم ، فلا يختار على ربه شيئاً بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك .

ومنها : أنه إذا فوّض أمره إلى ربه ورضي بما يختاره له أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أنه يريحه من الأفكار المتبعة في أنواع الإختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه ، لأنه مع اختياره لنفسه ، ومتى صح تفويضه ورضاه ، اكتنفه في المقدور والعطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه ، فعطفه يقيه مايحذره ، ولطفه يهون عليه مافدّرهُ .

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده ، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميته ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف .

الزوجة والأهل والأولاد تجعل من البيت المسلم يعيش في روحانية رمضان هذا الشهر الكريم، عندما يقبل الأب والأم والبنين والبنات على الصلاة والعبادة والذكر وقراءة القرآن، ولنحفزهم على ذلك الخير؛ فمن دعا الى هدى كان له من الخير والأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

لقد كان النبي يخصُّ العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يقوم بها في بقية الشهر، ومن هذه الأعمال:

1 – احياء الليل؛ ففي حديث عائشة قالت: «كان النبي يخلط العشرين بصلاة ونوم، فاذا كان العشر شمّر وشدّ المئزر». ويحتمل أن يراد باحياء الليل احياء غالبه، ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة، قالت: «ما أعلمه قام ليلة حتى الصباح».

2 – ومنها: أن النبي كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيرها من الليالي، قال سفيان الثوري: أحب اليّ اذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل، ويجتهد فيه، ويُنهض أهله وولده الى الصلاة ان أطاقوا ذلك. وقد صح عن النبي أنه كان يطرق فاطمة وعليًا ليلاً فيقول لهما: «ألا تقومان فتصليان». وكان يوقظ عائشة بالليل اذا قضى تهجده وأراد أن يُوتر.

وورد الترغيب في ايقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة، ونضح الماء في وجهه؛ ففي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي، حتى اذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» [طه: 132].

وكانت امرأة أبي محمد حبيب الفارسي تقول له بالليل: «قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد، وزادُنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارتْ قدّامنا، ونحن قد بقينا».

يا نائمًا بالليل كم ترقد
قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخُذ من الليل وأوقاته
وردًا اذا ما هجع الرُّقد
من نام حتى ينقضي ليله
لم يبلغ المنزل قبل أو يجهد

3 – ومنها: أن النبي كان يشدُّ المئزر، واختلفوا في تفسيره؛ فمنهم من قال: هو كناية عن شدة جدِّه واجتهاده في العبادة. وهذا فيه نظر، والصحيح أن المراد اعتزاله للنساء، وبذلك فسّره السلف والأئمة المتقدمون ومنهم سفيان الثوري، وورد تفسيره بأنه لم يأو الى فراشه حتى ينسلخ رمضان، وفي حديث أنس: «وطوى فراشه، واعتزل النساء».

وقد قال طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى: «فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» [البقرة: 187]: انه طلب ليلة القدر. والمعنى في ذلك أن الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام الى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر؛ لئلاّ يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح، فيفوتهم طلب ليلة القدر، فأمر مع ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجد من الليل، خصوصًا في الليالي المرجوّ فيها ليلة القدر، فمن ها هنا كان النبي يصيب من أهله في العشرين من رمضان، ثم يعتزل نساءه ويتفرغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر.

4 – ومنها تأخيره للفطور الى السحر: رُوي عنه من حديث عائشة وأنس أنه كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحورًا، ولفظ حديث عائشة: «كان رسول الله اذا كان رمضان قام ونام، فاذا دخل العشر شدّ المئزر، واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين، وجعل العشاء سحورًا» [3].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي، قال: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل الى السحر». قالوا: فانك تواصل يا رسول الله؟ قال: «اني لست كهيئتكم، اني أبيت لي مُطعم يُطعمني وساق يسقيني» [4].

وظاهر هذا يدل على أنه كان يواصل الليل كله، وقد يكون انما فعل ذلك لأنه رآه أنشط له على الاجتهاد في ليالي العشر، ولم يكن ذلك مضعفًا له عن العمل؛ فان الله كان يطعمه ويسقيه.

5 – ومنها: اغتساله بين العشاءين، وقد تقدم من حديث عائشة: «واغتسل بين الأذانين»، والمراد: أذان المغرب والعشاء.

قال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر.

وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة، ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر. وكان أيوب السختياني يغتسل لليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين، ويلبس ثوبين جديدين، ويستجمر ويقول: ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة أهل المدينة، والتي تليها ليلتنا. يعني البصريين.

فتبين بهذا أنه يستحبُّ في الليالي التي تُرجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين، والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن، كما يشرع ذلك في الجُمع والأعياد، وكذلك يُشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات، ولا يكمل التزين الظاهر الا بتزين الباطن بالتوبة والانابة الى الله تعالى، وتطهيره من أدناس الذنوب؛ فان زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئًا.

ولا يصلح لمناجاة الملوك في الخلوات الا من زيّن ظاهره وباطنه وطهّرهما، خصوصًا ملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى، وهو لا ينظر الى صوركم، وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليزين له ظاهره باللباس، وباطنه بلباس التقوى.

اذا المرء لم يلبس ثيابًا من التُّقى
تقلب عُريانًا وانْ كان كاسيَا

6 – ومنها: الاعتكاف؛ ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، «كان رسول الله يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبض فيه اعتكف عشرين». وانما كان يعتكف النبي في هذه العشر التي يُطلب فيها ليلة القدر؛ قطعًا لأشغاله، وتفريغًا لباله، وتخليًا لمناجاة ربه وذكره ودعائه. فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله وما يُرضيه عنه، وكما قويت المعرفة والمحبة له والأنس به، أورثت صاحبها الانقطاع الى الله تعالى بالكُلّيّة على كل حال.

ليلة القدر

قال تعالى: «انّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [القدر: 1–3]. وعَن أبيٍ هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال في شهر رمضان: «فيه ليلة خير من ألف شهر، منَ حُرم خيرها فقد حُرم» [5]. وقال مالك: بلغني أن رسول الله أُري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألاّ يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العُمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر.

وأما العمل في ليلة القدر فقد ثبت عن النبي أنه قال: «من قام ليلة القدر ايمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه». وقيامها انما هو احياؤها بالتهجد فيها والصلاة، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها أيضا. قال سفيان الثوري: «الدعاء في تلك الليلة أحب اليّ من الصلاة». ومراده أن كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وان قرأ ودعا كان حسنًا.

وقد كان النبي يتهجد في ليالي رمضان، ويقرأ قراءة مرتلة، لا يمر بآية فيها رحمة الا سأل، ولا بآية فيها عذاب الا تعوّذ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكير، وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها. وقالت عائشة –رضي الله عنها– للنبي: أرأيت ان وافقت ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني». والعفو من أسماء الله تعالى، وهو المتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها عنهم، وهو يُحبُّ العفو؛ فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فاذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب اليه من عقوبته، وكان النبي يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وعفوك من عقوبتك».

وانما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر؛ لأن العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحا ولا حالا ولا مقالا، فيرجعون الى سؤال العفو كحال المذنب المقصر.